بطبقته، ويتوكأ على «آلة صناعية»، ويعيش وهما زمن طبقته، التي تثرثر في القضية الوطنية وتتآمر عليها، أو الطبقة التي تعتقد أن القضية الوطنية مربوطة بها أبدا.

في حقل التغيرات الجديدة يزول «السيد» و«العبد»، أحدهما يمضي صاحيا وثانيهما واهما، وفي زوالهما يقترب «ابن السيد» من «ابن العبد»: «شحادة» و«عادل» يشتغلان في المعامل الاسرائيلية.

يحمل «شحادة» إرث أبيه، والإرث حقد وانتقام من الماضي: «لما متنا من الجوع ما حدش سأل عنا» (ص ٥٠). في غياب الملكية وحضور القهر تتساوى الازمنة والأمكنة بل يأخذ الزمان والمكان معناهما من حدود العيش: «كان شحادة يرتدي جاكيت جلدي له ياقة من الفرو. وكان شعره الأجعد يحيط رأسه بشكل هالة لا يقل طول نصف قطرها عن عشرة سنتيمترات. بينما تكوم إلى جانبي خديه سالفان غليظان كشجرتي تنش صغيرتين. وكان يمسك غليونه بيده المزوقة بخاتم ذهبي ثمين ويتكلم من جانب فمه كما يفعل كبار الممثلين الأجانب» (ص ٩٩).

ترسم سحر في هذه الكلمات صورة «الغني الجديد» وتوغل في هذا الرسم حتى تصل إلى حدود «الكاريكاتور»، مع ذلك فإن «اخضرار» واقع شحادة لا يشير إلى «جمال» الحاضر بل إلى بؤس الماضي، لانه في وصفه الجديد لا يستعيد إلا اضطهاد أبيه، ولا يحاول إلا تحقيق ذاته في وضع هجين، فلا يجيء التحقيق إلا هجينا.

إذا كان «شحادة» يمثل في سطور الرواية «نمط الغني الجديد» فإن «عادل الكرمي» يمثل نمط «الفقير الجديد»، وإذا كانت علاقة والد الاول لا تتحدد بعلاقة والد الثاني إلا كعلاقة طبقية، فإن الاحتلال الاسرائيلي قد كسر هذه العلاقة بين «الابنين» ووحدهما في السوق الإسرائيلية. لهذا فإن عادل يمثل إشكالية مزدوجة، فهو لا يحاول العثور على صيغة نضال مساومة فقط، بل عليه أن يتحمل وضعه الجديد، الذي أنزله من طبقة إلى أخرى، وجعله يقف في صف من كان أجيراً له: «وأنت عادل انزل، انزل، واشرب ارجيلة على حساب شحادة» (ص ١٠١)، «أيعجبك أن تهبط إلى مستوى زهدي وشحادة وأبو النوف؟ هؤلاء الجهلة لا يعرفون شيئاً» (ص ١٠٥). ينزل «عادل» ويذهب إلى العمل مع غيره، ووالده يعتقد وهماً، أن الابن في المزرعة، والابن لا يصارح هذا «الوالد الصنديد الذي يتربع وسط الديوان محاطا بالوجهاء» (ص ٦٥). تتكشف إشكالية «عادل» الثانية في علاقته مع القضية الوطنية، وشكل ارتباطه بها يختلف عن شكل ارتباط والده، لأن تغير وضعه الطبقي دفعه إلى موقع ايديولوجي جديد ومتقدم، أو إلى موقف موضوعي يجعله يتعامل مع ما هو ممكن لا مع ما هو واجب الوجود. يبرهن هذا الموقف عن ذاته في صيغ موجزة واضحة: «أنا لم أنس البلد بدليل أني لم أتركها» (ص ١٠٧)، «للصورة أكثر من بعد واحد» (ص ٧٨). أما معنى هذه الصورة فيتضح في صورة أخرى: «خذ عمري واقنعني بأن الحرية تعني جوع الفرد. وأن في الجوع سعادة» (ص ٧٢). يمثل «عادل» في حركة الواقع الموضوعية شكل الوعي الذي يعي حدود قدراته ويدرك تعقد المسيرة النضالية، أي يدرك حدود تأثيره الممكنة على الواقع المعاش. لذلك فإن دوره الإيجابي يظهر في ممارسته اليومية التي تعمل